الناس

تعلمت منذ سنوات عديدة أن أتجاهل الناس وكلامهم ورأيهم. تعلمت أنني في فرحهم منسية وفي حزنهم مدعوة. تعلمت أنهم لن يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب. تعلمت أنهم عبء والكثير منهم مجرد طفيليات بشرية. لم أهتم برأي الناس في حملي أو إنجابي أو تربيتي لابني. لم أهتم بتعليقاتهم على طول فترة الرضاعة أو طول فترة ارتداء الحفاضات. لم أهتم برأيهم في تشاركنا الفراش أو في الحضن أو في أي شيء آخر. صدرت لهم ودن من طين وودن من عجين!

عندما كان عمر «آدم» تسعة أشهر، اشتركت لنا في مكان يقدم أنشطة للأم والطفل معًا، كالغناء واستكشاف صندوق الكنز. في هذا المكان أيضًا فرص للطفل للحركة الآمنة مثل التزحلق أو التسلق أو السير في نفق. كنا مجموعة من الأمهات والأطفال في كل حصة وكانت المجموعات مقسمة وفقًا لأعمار الأطفال. في البداية كنت مستمتعة. أما «آدم» فقد كره المكان من أول يوم. كره إضاءة لمبات النيون وكثرة الأطفال (5 أو 6) وكثرة الأمهات– أو هكذا استنتجت. نصحتني مديرة المكان بالاستمرار عدة أشهر لأعطيه فرصة للتعرف أكثر على الأنشطة، على أمل أن يتوقف عن البكاء ورفض التفاعل.

كنا نذهب معًا لنلعب ولأتيح لـ«آدم» فرصة للتفاعل مع الأطفال _كرههم «آدم» تمامًا_ وبدأت أعتاد وجود الأمهات وأصبحت بعض الوجوه مألوفة. مع الألفة، بدأ يتكرر سؤال مؤلم مغرض: هو عنده قد إيه؟ كان «آدم» وقتها تسعة أشهر، بدون أي أسنان، ولا يفعل شيئًا سوى الجلوس ومد يده اليسرى بحرص، وكأنه يخاف أن يختل توازنه. كم كرهت هذا السؤال! كان يتلوه المزيد من الأسئلة الغبية: هوه ما طلعش أسنان؟ هوه مش بيحبي؟ هوه مش بيقف؟ هوه مش بيلاغي؟ هوه على طول بيعيط؟

كبر «آدم» وأصبح عمره عامًا! لا يمشي ولا يقف وبلا أسنان! أول سنة بدأت تشق اللثة بعد عيد ميلاده الأول بأسبوع! بعد التعارف الوجيز، تسأل الأم الحشرية باستنكار: هوه عنده قد إيه؟

بدأت أكذب!

بدلًا من عام، أقول تسعة أشهر. بدلًا من عامين، أقول عام. بدلًا من ثلاثة أعوام أقول عامين!

أصبح عمر «آدم» الحقيقي ثلاث سنوات، لا يتكلم، كلمات قليلة مبهمة، لا توجد جمل نهائيًا، لا يفهمه أحد سواي وبعض المقربين!

استمر الكذب!

أصبح عمر «آدم» أربع سنوات وتغير شكل السؤال السخيف: هو عنده إيه؟

كبر «آدم» وما زال الأغبياء السخفاء يطرحون نفس السؤال!

في قاع المحيط يرقد بركان الغضب! يثور وتتناثر الحمم على قلبي تحرقه! أتخيل نفسي أطعنهم بسكين! أتخيلني أقطع ألسنتهم! أتخيلني أصب لعنة التأخر على أولادهم، لقد كرهتهم جميعًا، كرهت نظراتهم، تعبيرات وجوههم، نصائحهم الغبية، تعليقاتهم الوقحة على صفحتي وعلى فيديوهات «آدم». أتمنى أن يصيبهم ما أصابني! أتمنى أن يولد جميع أطفالهم بشتى الأمراض والإعاقات! أتمنى أن تفسد نظرات الشفقة والأسئلة المقتحمة كل فرحة لهم، تمامًا مثلما يفعلون بي وبابني!

ربنا يخليهولك
ربنا يبارك في مجهودك معاه
ربنا يؤجرك عليه
ربنا يشفيه

يثور البركان ويفور، لم يعد يحرق قلبي وحده! أصبحت أسير كقنبلة موقوتة قابلة للانفجار في أي لحظة، في أي مكان، في وجه أي أحد! لقد تعبت! ما إن يفتح «آدم» فمه حتى أرى المفاجأة على الوجوه، وسواء سألوا أم لم يسألوا، يثور البركان!

في يوم من الأيام، باقتراب «آدم» من إتمام عامه الثامن، كنا في إحدى زياراتنا لقرية ما. كعادتنا، نجلس مع أصحاب المنزل ونأكل معهم ونتحدث معهم لنعرف المزيد عنهم وعن حياتهم. في ذلك اليوم، جاءت سيدة الدار لتقدم لنا طعام الغداء. كانت رائحته شهية وكنا في قمة الجوع والحماس. تذوق «آدم» الطعام أولًا وشكرها قائلًا «تسلم إيدك الأكل روعة». فما كان منها إلا أن نظرت لي بكل عفوية وقالت «هو ماله؟ مال كلامه ولا لسانه؟ هو فيه إيه؟ هو مش بيعرف يتكلم ولا إيه؟»

شعرت ببداية ثورة البركان، تخيلت «آدم» وكيف يشعر، نظرت لها بكل برود وقلت «خلقة ربنا!» وكأن سكينًا طعنني، سمعت صوت «آدم» يقول: «آسف يا ماما». قلت له إنه لا داعي للأسف وانصرفت الحيزبون الجاهلة. ظل الموقف ووقعه الثقيل على قلبي حتى اقتربنا من المنزل. نظرت لـ«آدم» وقلت له «أتعرف أنني أحبك من قبل أن أراك؟» فأجاب بالإيجاب. أضفت «أحببتك أكثر بعد ميلادك وبعد أن شممت رائحتك وبعد أن أرضعتك وبعد أن رأيتك تكبر.» ابتسم ابتسامته الجميلة. استطردت: «حتى عندما ظهرت مشاكل تأخر المشي والكلام وغيرها، ظللت أحبك، بل زاد حبك في قلبي. أنا أحبك كما أنت. أنا محظوظة بك. لا داعي للاعتذار. لا تعتذر عن نفسك».

قال إنها تذكره بزوجة بكر والفلاح إياه وعدد بعض الشخصيات الذين رددوا على مسامعه كلامهم القبيح. قلت له: «إنت خلقة ربنا وأنا أحبك كما أنت.» سألني إن كان سيتحسن مع الوقت. قلت له ربما نعم وربما لا ولكن لا يفرق ولا يهم، في كل الأحوال هو رائع!

في يوم آخر، كنت أشرب الشاي في كافيه بالإسكندرية. كانت أول مرة نذهب هناك

وكان «آدم»، كعادته، يحلق حولي كطائر حنون. أحضرت النادلة الشاي وبابتسامة لطيفة قالت لـ«آدم»: «إنت أكيد مش مصري». رد «آدم» مؤكدًا أنه مصري. فقالت له: «دا إنت مابتعرفش تقول كلمتين عربي على بعض». قبل أن أنقض عليها، كما وعدت نفسي، رد «آدم» بكل هدوء وثقة: «طبيعتي كده». رأيت الحرج والمفاجأة على وجهها. رأيت الكلمات تتخبط بين شفتيها وهي تقول إن طبيعته جميلة وأن اسمه جميل وأخذت في توجيه المديح له في محاولة لحفظ ماء وجهها.

أتذكر طفولتي وأسرح في رد فعلي لو كنت أنا مكان «آدم» وفي نفس عمره. كنت سأبكي، كنت سأنهار، كنت سأعتزل الحياة، كنت سأعتكف في المنزل، ما كنت سأكون أبدًا في قوته وشجاعته وثقته بنفسه.

الإجابة «آدم»، دائمًا الإجابة «آدم»! أيًّا كان السؤال أو الموقف أو الاختيار، الإجابة «آدم»!

عشر نصائح لكل بالغ يتعامل مع أي طفل

الكثير من البالغين في حياة الطفل يقترفون أخطاءً جسيمة تترك آثارًا سيئة على نفسية الطفل. هذه الأخطاء ترتكب بحسن نية وبحكم العادة، والكثير منها متوارث عبر الأجيال.

يا كلب!

ابنك أو حفيدك أو ابن الجيران ليس كلبًا أو «كلبوبًا» أو «كلبوبة»! انظر له جيدًا! هذا إنسان مثله مثلك ولكنه صغير في الحجم وما زال ينمو! سب الطفل على سبيل المزاح عادة سيئة! من فضلك توقف عن هذا الهزار السخيف.

إنت وِحش!

الطفل حتى سن ست سنوات يصدق كل ما تقول ويأخذ كلامك حرفيًّا وعلى محمل الجد! عندما تقول لطفل إنه وِحش سيصدقك وسوف يشعر بالجرح والإهانة والذنب وسوف تهتز ثقته بنفسه!

تعالى هنا هات بوسة!

أعرف أنك تحب الطفل وأعرف أنك تود أن تحضنه وتقبله، ولكن تذكر أن للطفل دائمًا حق الرفض! جسد الطفل ليس مستباحًا، وكونك بالغًا لا يعطيك الحق أن تجذب الطفل عنوة وتقبله غصب عنه! أنت تعلمه أنه مستباح وتصرفك هذا سيجعله عاجزًا عن رفض محاولات أي شخص بالغ للتحرش به! لقد هزمت روح الطفل الفطرية للدفاع عن نفسه! أعطِ الفرصة للطفل أن يراقبك ويحبك ويعبر لك عن مشاعره بطريقته وفي الوقت الذي يختاره.

أخوك أحسن منك!

المقارنة جريمة! مقارنة الأطفال بعضهم ببعض لا ينتج عنها سوى الغيرة والحقد والمنافسة البغيضة! هل هذا هو هدفك؟ هل تريد أن تسمم نقاء طفلك بهذه الطريقة المقززة؟ مقارنتك للطفل بطفل آخر لن ينتج عنها أي نتائج إيجابية! هل تحب أن يقارنك أحد بزميلك أو جارك أو ابن عمك أو أخوك؟ هل ستشعر بالرضا عن نفسك؟ هل ستحب هذا الشخص الذي جرحك بعقد المقارنة؟ توقف الآن!

هات بوسة وأنا أحبك!

من حق كل طفل أن يشعر بالحب في كل الأوقات! لا تربط الحب بأي شيء! لا تقل هذه الجمل: «هات بوسة وأنا أحبك» «خلص أكلك وأنا أحبك» «اعمل الواجب وأنا أحبك» «نام وأنا أحبك»

أنت تعلم الطفل أن للحب ثمنًا وأنه لن يحصل على الحب إلا إذا دفع الثمن! أنت تعلم الطفل أن يبيع نفسه وطاعته ورغباته في مقابل الحصول على الحب! هذه جريمة!

الرشوة

كلما ترى الطفل تعطيه حلوى! كلما ترى الطفل تعطيه شوكولاتة! كلما ترى الطفل تعطيه هدية! كلما ترى الطفل تشتري له شيئًا! هذا ليس حبًّا! أولًا أنت تعلم الطفل أن يحبك لأسباب مادية وسوف يكبر هذا الطفل ويربط الحب بالمادة! هذه رشوة، أنت ترشي الطفل من أجل الحصول على حب أو حضن أو قبلة!

ما إنت طالع لأمك/ أبوك!

قد تكره أم الطفل! قد تبغض والد الطفل! أنت تعلم أنك غير قادر على مواجهة الأم أو الأب بمشاعرك السلبية تجاههم، ولا يمكنك تغيير حقيقة أن هذا الرجل أبوه وهذه السيدة أمه! تلجأ لأسلوب قبيح في الهجوم! تهاجم الطفل! سب أهل الطفل أو التحقير من شأن أحدهما أو انتقاد أي طرف فيهما من خلال تعليقات لاذعة موجهة للطفل لن يحقق هدفك! أنت فقط أهنت الطفل وجرحته وأشعرته بأن هناك ما يعيب أهله. أنت تسببت في إرباك الطفل!

إيه الوحاشة دي!

البالغون هم مرآة الطفل! من خلال نظراتهم له وتعليقاتهم عنه يدرك نفسه! يدرك الطفل أن ثمة ما يعيب بشرته أو شعره أو أنفه أو طوله أو وزنه من خلال تعليقاتك! عزيزي البالغ، كيف ستشعر إذا نظر لك أحد وقال عن أنفك إنه كبير أو قال عن شعرك أنه خشن أو قال عن عينيك أنهما ضيقتان؟ لا تعلق على الطفل إلا بالإيجاب واعتبرها صدقة!

شكلك غبي/ يا غبي!

وصف الطفل بالغباء شكلًا أو موضوعًا سوف يجعله يصدق أنه غبي وسوف يتسبب في غبائه بالفعل! إذا كان طفلك يعاني من أي من صعوبات التعلم، وجب عليك مساعدته وليس سبه. إذا كان طفلك مطفي، فهذا خطؤك لأنك قتلت شغفه وفضوله؟ إذا كان الطفل يخطئ القول أو الفعل، دورك هو توجيهه، لأنه طفل!

أنا مش بحبك!

إذا كنت والد هذا الطفل أو والدته أو من البالغين المقربين من الطفل، أنت مصدر الحب في حياة هذا الطفل حتى يبدأ مرحلة المراهقة! إذا أردت أن تعاتب الطفل عاتبه بموضوعية! قل له أنا تضايقت عندما ضربت فلان وعلل سبب الضيق. قل له أنا حزين لأنك أتلفت موبايل فلان ووضح له أسباب حزنك. لكن لا تسحب حق طفلك في الحب المطلق غير المشروط! إذا شعر طفلك أنك لا تحبه، وإذا سمعك تقول إنك لا تحبه، لن يحب نفسه والإنسان الذي لا يحب نفسه يصبح مداسًا عندما يكبر!